خروج عن النص

صلاح عيسى

كان خالي رياض، هو أقرب اخوالي الخمسة الى قلوبنا ونحن اطفال، فقد كان ـ بعكس الكبار الآخرين في اسرتنا ـ قليل الأوامر ، نادر النواهي ، متسامحا مع كل اخطائنا، وكانت ـ غالبا ـ جسيمة :

كان قد غادر المدارس الى غير رجعة ، قبل أن يحصل على شهادة الكفاءة، بعد واقعة من أهم احداث الجانب الفكاهي في تاريخ عائلتنا. فقد حفظ مفردات اللغة الانجليزية كما نلقنها بالضبط. تعلقت عيناه بالسبورة . قرأ ما عليها من كلمات عربية وما يناظرها من معان بالانجليزية . سمعت أذناه تلا المدرس لكل كلمتين معاهازاً جسده على الطريقة الأزهرية القديمة في الحفظ. ردد وزملاؤه كل كلمتين معا :

ـ تماما just منحدر slow وهكذا حفظ خالي النص ـ كما رآه وسمعه ورددده ـ كل كلمتين معا . وحين جاء أوان التسميع سأله المدرس : تماما يعني ايه يا رياض ؟. فقال خالي بآلية : تماما جست . منحدر سلو .

وأراد المدرس أن ينبهه لما ظنه سهوا ، فعاد يسأله : امال منحدر يعني ايه؟. فعاد خالي يردد بآليه ودون ابتسام : تماما جست . . منحدر سلو . ويئس المدرس ـ فيما تلاه ذلك من أسابيع ـ من اقناعه بأن النص الذي يردده بآلية ، يضم كلمتين مختلفتين ، لكل منهما معنى منفصل ، فأهمل شأنه ، ولم يعد يسمع له .

ولأن خالي رياض، كان أطول تلاميذ الفصل ، وأضخمهم ، فقد كان اول من تقع عليه عين الناظر والمفتش ، وكل من يدخل الفصل من الغرباء. فيختارونه، دون كل التلاميذ، ليختبروا معلوماته في الانجيلزية ، ويقيسوا بها مدى اتقان المدرس لعمله . . فيسألونه : تماما يعني ايه يا رياض؟. فيجيب بنصه الخالد تماما جست، منحدر سلو .

ويقلبون السؤال ، فلا تنقلب الاجابة ، لأن خالي كان مصرا على ألا يخرج عن النص الذي حفظه بثلاث من حواسه . والنتيجة نظرة سخط يلقيها المفتش على المدرس ، يغادر بعدها الفصل ، لتتحول نظرته الى عصا تنهال على كفي خالي رياض، يتلقاها بصبر ، فلا يتوجع ولا يحتج ، ولا يسحب كفيه من مرمى العصا ، حتى تكل يد المدرس ، فيعود خالي الى مكانه في الفصل ، شامخ الرأس ، ككل صاحب رسالة يتحمل تكاليف الاصرار على مبادئه ، والصمود في الدفاع عنها . .

ولأن المدرسة كانت أهلية ، تعيش على معونات من وزارة المعارف تنقطع اذا ما ساءت تقارير المفتشين عنها ، فسرعان ما جاءاليوم الذي نفد فيه صبر الجميع . دخل الناظر الفصل ومعه جوقة من المفتشين واختار أحدهم ـ كالعادة ـ أطول التلاميذ قامة . وسأله عن اسمه. ثم قال بأبوة مصطنعة : تماما يعني ايه يا رياض؟. فكرر ـ بالطبع ـ نصه الخالد . وما كاد الجمع يغادر الفصل، وقد أصبح مؤكدا ان المدرسة لن تحصل على الاعانة ، حتى انهال المدرس والناظر على خالي رياض ضربا ، وطاشت ضرباتهما بالغيظ فطالت كل مكان من جسده ، فاذا بصبره الطويل ينفد، واذ به يرد على العدوان بمثله ، بل بما هو اقسى منه ، وانجلى غبار المعركة ، بنقل المدرس الى المستشفى وجلاء الخال العنيد عن المدرسة الى الأبد !

وحين وصلت الى السن الذي استطيع فيه أن افهم ما بدا أدركت ان خالي رياض كان على حق ، وحكمت بأن المدرس يستحق ما ناله من عقاب ، وربما اقسى منه ، فهو الذي وضع النص كل كلمتين معا ، وهو الذي كتبه على السبورة كل كلمتين معا ، وهو الذي تلاه على خالي وزملائه كل كلمتين معا ، وطالبهم ان يرددوه خلفه بهذه الطريقة . وفجأة ، ودون سابق انذار ، وامام الناظر والمفتش ، خرج عن النص، وابتدع نصا جديدا، وغير من طرف واحد قواعد اللغة، فاستحق العقاب الذي أوقعه به خالي ، الذي اصر على ان يلعب اللعبة طبقا للأصول التي اتفق عليها الجميع ، وتمسك بالنص ، وتحمل في سبيل ذلك ، عدوان الخارجين عنه ، وحين نفد صبرهم ادبهم الأدب الذي يليق بالخارجين عن النص!

سبت ارضك ليه؟

وفيما بعد ، شهدت معركة اخرى من معارك الخال رياض،

تطلبت زمنا ، لكي استوعب معانيها وافهم دلالالتها . . .

كنا يومئذ نلعب في فناء البيت حين وقف بالباب غريب يطلب صدقة . ومع أن صورتهكانت تختلف تماما عن هيئة متسولي قريتنا والقرى المجاورة ، فقد ألقينا نظرة عابرة عليه ، دون أن يعنى احدنا بأن يدخل الى المنزل لكي يأتيه برغيف من «مشنة الشحاتين» ، التي تقبع في احدى قاعات المنزل الداخلية كان طاعنا في السن جدا : كل شيء فيه قديم ومكرمش . . ملامحه ونظراته وقامته المنحنية الضئيلة رغم زحام الأسمال التي يرتديها . . صديري وجلباب وجاكتة وبالطو ومركوب . وكان ابرز ما فيها شملة مبرقشة يغطي بها رأسه الصغير وتلتف حول عنقه . لم يقل ـ كعادة المتسولين في قريتنا : حسنة قليلة تمنع بلاوي كثيرة . لم يقل : الهي يجعل بيوت المحسنين عمار . تمتم بكلمات لم نفهمها الا بعد وقت : كسرة خبز الله يربحك !

وعبرت أمي الفناء ، فلفتت هيئة الرجل الغريبة نظرها ، فسألته : انت منين يا عم؟ . امرتني بحسم أن اترك ما بيدي لأعود برغيف من مشنة الصدقة ، وعدت مسرعا لأجد خالي رياض واقفا مع الرجل امام البوابة ، وقد تحلق الكل حولهما ، تبادر الى اذهاننا جميعا ان الرجل ريس طبل ، يصحب غوازي من سنباط . واننا سنشاهد رقصا ، وسنسمع الغازية تغني كالعادة :يا رياض أفندي يا أبهه . . يا كايد الناس كلها . . .

أخفيت الرغيف وراء ظهري ، وأقسمت ألا أعطيه للرجل الا اذا غنت الغازيةيا صلاح أفندي يا أبهه . .يا كايد الناس كلها . لكن الرجلكان ريسا بلا طبل شحاتاً دون غازية وكان خالي غاضباً بصورة لم أره عليها من قبل . غطى صوته الجهوري الغاضب على ردود الرجل ، فلم أفهم منها الا أنه من بلد اسمها فلسطين وانه غادر بلده ليسيح في بلاد الله وعلى ابواب خلقه ، هربا امام اليهود الذين قتلوا اهله ، فلم يبق سواه .

ولا أدري لماذا أغضبت كلمات الرجل خالي ، فعاد يصرخ في وجهه بكلمات لم أفهمها لتدافعها ، لكنه ختمها ، بأن جال ببصره في الفناء ، والتقط أول ما صادفه ، وكان سيرا من الصاج الذي تخزم به البراميل ،وانهال به على الرجل العجوز ، يضربه بقسوة وغضب وهو يصيح : سبت أرضك ليه يا ابن الكلب ؟ .

وتوالت الضربات . تدعور الرجل . . . انفرطت مخلاته ففرشت محتوياتها الطريق : كسر من الخبز وحزم من الفجل وفحل بصل وقطعة جبن قديمة ومسامير وقطع كاوتشوك وشراب ممزق وشملة متسخة وكل ما يمكن ان يجمعه سائح بين بلاد الله ، يقف على ابواب خلقه . واغلق خالي البوابة وواصل الصياح فينا مهددا بأن يقطع رقبة كل من يعطي الرجل ـ أو امثاله ـ شيئا حتى لو كان شربة ماء . . ثم اندفع ـ ردا على احتجاج والدتي ـ يتحدث عن مبررات ما فعل ، حديثا لم افهم منه شيئاً ، فقد تعكر كل شيء : باخ حماسنا للعب . ولم يعد يهمني أن القب بالأفندي أو الأبهه . وكان خالي يواصل دفاعه عما فعل ، حين تسللت الى مشنة الصدقة ، فأخذت رغيفين آخرين ، وتسحبت من باب المنزل الخلفي حتى لا يراني وادركت الرجل في نهاية الشارع ، وكان يسير ببطء مستندا الى عكاز عجوز مثله ، فأعطيته الأرغفة ، فوضعها بيده المرتعشة المكرمشة ، في مخلاته ، وعاد يتحسس بكفه مكان الضربات على ظهره . . وقال بصوته الواهن :

ـ . الله يربحك .

خطوط على القلب

في خريف تلك السنة (١٩٤٨) غادرت قريتي الى القاهرة فأكلت ـ لأول مرة ـ الحلاوة الطحينية بالعيش الفينو ، و« سندويشات » الطعمية ، وشاهدت فريد الأطرش ولوريل وهاردي على شاشة السينما . وسمعت ـ لأول مرة ايضا ـ زمارات الانذار واصوات المدافع المضادة للطائرات ، وعرفت ان هناك حربا ، وهتفت في الظلام : طفى النور . وفي الصباح كنت اجمع واخوتي شظايا المدافع المضادة للطائرات التي كانت تتساقط على سطح عمارتنا . وكنت اقلب الشظايا بين كفي ، وأسأل نفسي احيانا .

ـ هل واحدة منها هي التي قتلت زوج حمدية ؟!

ولم يكن زوج حمدية طيارا ، بل نجارا . وكنت اعتبرها أيامها أجمل نساء العالم ، فقد كانت أول من رأيت عن قرب من «نسوان» مصر، حين قدمت في الصيف لألتحق بالمدرسة الابتدائية . ولأنها كانت صغرى بنات السيدة التي تعمل في منزلنا . فقد شهدت ليلة زفافها . رأيت وجهها في النور الساطع ، وكان فرحا ومتلألئا ببهجة كالنشوة ، وحين عدت في الخريف ، كان النجار الذي تزوجته قد أصبح جنديا ، وكان الجندي قد أصبح شهيدا ، وكانت حمدية حاملا في شهرها الرابع . . وكانت ترتدي السواد، وقالت امها وهي تبكي : قتله اليهود في فلسطين .

ومضت السنوات تحفر كل يوم على القلب خطا من هم ، وتقطيبة من حزن ، لكنها لم تخل من الضحكات : ازدحمت المكتبة بكتب عن فلسطين ، وصور من حياة اللاجئين . ويوما شغفت بأن أتخيل كيف يعيشون بالضبط . فظللت أسأل وأقرأ حتى بنيت في رأسي « ماكيت » شبه حقيقي لمعسكر اللاجئين . وازدحم العمر بفلسطينيين من كل لون وعمر . قابلتهم في المقاهي وبيوت الأصدقاء ولاندوات في القاهرة وفي بغداد وفي دمشق وفي الجزائروفي بيروت وفي معتقل طرة .

وحين قابلت «مازن ابو غزالة» في شقة عبد الرحمن الأبنودي في نهاية عام ١٩٦٧، امضينا الليل نعبث في جرح النكسة، وكان طريًا لم يزل . وتأملت شبابه الفتي باعجاب مشوب بالحسرة . تداخلت ملامحه الوسيمة بمشاهد من وجه حمدية ليلة زفافها . وفكرت : هل يطعن في السن يوما فتقترب ملامحه من ملامح ذلك الرجل الذي وقف يوما على بوابة منزلنا في القرية يطلب كسرة

خبز ؟ وأين ذهبت حمدية في زحام الدنيا ؟ وهل خلعت السواد ؟ وماذا يفعل ابنها اليتيم الذي حملته بين ذراعي وهو رضيع وهشكته ، وفحصت وجهه باحثا عن الفرق بين ملامح اليتيم وملامح غيره من الناس. وكان الليل قد تقدم. وكنا قد اشبعنا النص الفلسطيني الذي يسكننا تشريحا وتفسيرا وتحليلا . ولم يكن الفجر قد اشرق بعد ، حين استأذن مازن ابو غزالة لينصرف . أغلق الباب خلفه ، وارهفت سمعي مرتعبا ، خشيت أن يعود، فيطرق الباب ليقول :

ـ كسرة خبز الله يربحك !

لكنه لم يعد . بعد شهور. سمعت آخر انبائه في آخر نشرات الأخبار التي نقلها عن الاذاعة المصرية ـ ذات ليلة من ربيع العام ١٩٦٨ ـ ميكرفون عنبر ٤ بسجن ملحق مزرعة طرة . في نابلس، تحزم مازن أبو غزالة بالديناميت، لفه على وسطه. وضع المفجر بين أصابعه تقدم تجاه قول من « آليات » العدو ضغط بأصابعه على المفجر . لم يتدعور على الأرض. لم تنفرط مخلاته . طارت في السماء اشلاؤه. لم يقل خالي رياض: سبت ارضك ليه ؟. كان مازن قد دفن نفسه في أرضه عنوة !

هوامش على النص

أضفت قصة مازن ابو غزالة الى النص الفلسطيني أمضيت وجيلي نصف اعمارنا نحفظه، وكان نصا مطولا يزدحم ببشر وخرائط وبخطب وكتب وذكريات . نحن حفظنا النص ورددناه : في العام ١٩٤٩ أصدرت الجامعة العربية توصية بألا تصف اجهزة الأعلام العربية اسرائيل الا بعبارة اسرائيل المزعومة ، ففعلنا . نحن صفقنا حتى فط الدم من أكفنا لزعماء خطبوا فاقسموا الا يستريح لهم مضجع الا وقد تحررت الأرض السليبة نحن غنينا مع المغنين «يا مجاهد في سبيل الله . . . دا اليوم اللي بتتمناه » و « دع سمائي فسمائي محرقة . . واترك الأرض فارضي مغرقة » . . نحن أنشدنا «راجعين بقوة السلاح . . راجعين نحرر الحمى . . راجعين كما رجع الصباح . . من بعد ليلة مظلمة » نحن عشنا نتحدث بصوت خفيض كالهمس ، ومع ذلك طرت شواربنا في المعتقلات والمنافي، لأن اصواتنا الخفيضة علت على صوت المعركة . اعترفنا بالذنب . تلونا قول الله عز وجل « ان انكر الأصوات لصوت الحمير ». لأنها على صوت المعركة تعلو . نحن من جيل التهمت الكتب والمقالات التي صدرت عن فلسطين في حياته ٩٠٪ من أحبار المطابع والمستورد من الورق، فالتهمت بالتالي كل قدرتنا على الإبصار وطاقتنا على الحفظ. وصنعت جماجم الذين ماتوا في سبيلها جبالا أعلى من المقطم والجولان وطوروس. ذلك كله اضيف للنص المغمور بالدم والاشلاء والأناشيد والأشعار وقليل من الضحكات. لذلك لم يعد جيلنا بشرا ، خلت اجسادنا من الأعضاء، وحشي الجلد بالنص الفلسطيني .

الخروج من طرف واحد

ومرت في النهر مياه كثيرة . . غمرت النص لكنها لم تغرقه . وحين خرجت ذات صباح من منزلي دون أن اغسل وجهي . جابهتني سيارات حشدوها بالبشر لتستقبل السادات العائد من القدس المحتلة ، كانوا قد وضعوا في أيديهم اغصان الزيتون . تذكرت حزمة الفجل التي انفرطت ذات يوم من مخلاة اللاجىء الفلسطيني . . ودهشت لأن قانونا كان قد صدر في اليوم نفسه بتغليظ العقوبة على الممثلين الذي يخرجون عن النص . . وقال لي محام صديق : ان القانون لا يطبق عادة على كبار الممثلين بل على الكومبارس.

وفي الأسبوع الأخير من يناير ١٩٨١ ، كنت واحداً من صف طويل ينتمي بعضه لجيلنا ، وينتمي آخرون لجيل الآباء ولجيل الأبناء، وقفوا جميعا امام الجناح الصهيوني في معرض القاهرة الدولي الثالث عشر للكتاب ، يوزعون بيانا يدعو لمقاطعته ويلفون اعناقهم بتلك الشملة المرقشة، التي عرفت فيما بعد أنها لباس الرأس الفلسطيني ، ويعلقون على صدورهم علم فلسطين .

وفي اليوم التالي كنت وحلمي شعراوي في نيابة أمن الدولة، وقعنا في يد الصائدين، وانتشر الآخرون في بقية انحاء المعرض يوزعون البيان ، وحين دخلت الى مكتب الأستاذ عاصم عبد الحميد رئيس النيابة، كنت أظن ان اقصى ما يمكن ان يوجهه لي من تهم ، هي التهمة التقليدية : الاثارة والبلبلة والتشكيك والتحريض. وبعد ان شربت القهوة ، خطر لي فجأة ان اسأله عن التوصيف القانوني للتهمة التي سيوجهها إليّ . . فقال بحرج : ـ المادة ١٠٢ من قانون العقوبات ؟!

ظلت نظرتي المستفهمة معلقة . واخرجت محاميتي اميرة بهي الدين قانون العقوبات من حقيبتها . . . وقرأت بصوت عال :

ـ يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة او المؤقتة كل من يقوم بعمل عدائي ضد دولة اجنبية ، يكون من شأنه قطع العلاقات الدبلوماسية معها . .

لم تعد اسرائيل مزعومة . . ولم يعد العمل العدائي ضدها شرفا لذلك يستحق زوج حمدية الموت ، ويستحق مازن ابو غزالة لقب الخارج على القانون ، ويستحق كل الشهداء ما حاق بهم ، فتلك هي العقوبة الواردة في قانون العقوبات ، والعدل ـ كما قال نجيب سرور ـ يلبس طرابيش، او يلبس طاقية الحاخامية ، ولأنني لم اكن شجاعا كخالي رياض، ولأن عاصم عبد الحميد بدا لي ضحية مثلي، لمن خرجوا عن النص، فقد انفجرت غاضبا في الهواء واندفعت اغادر الحجرة وانا العن واسب ، وخلفي اميرة بهي الدين ، تذكرني بصوت كظيم . . انني متهم . . ومقبوض علي . .

فمتى يعاقب الذين خرجوا عن النص؟!